كلمةٌ في المنهج الإصلاحي

قيس آل مبارك(*)

لقد مَكَثَ الرَّسُولُ في مَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، يُعاني مِنَ المشركينَ ما عانَىٰ، وأُوذِيَ في أصحابِه وأُوذِي في دِينِه، ومعَ ذلكَ لم يفعَلْ للمُشركِينَ شيئًا يُؤذِيهم، ولَم يتصرَّفْ برُدودِ أَفعالٍ بلْ كانَ المسلمونَ والصَّحابةُ الكِرامُ يأتونَه: كُنَّا في الجاهليَّةِ [أَذِلَّاءَ] أَفإِن أعَزَّنا اللهُ بالإسلامِ نمنع أن نَأخُذَ حَقَّنا. سُلِبَت أموالُهم، هُتِكت أعراضُهم، اعْتُدِيَ عليهم، قُتِلَ مِنهم مَنْ قُتل، عُذِّب مَنْ عُذِّبَ، وكانوا كُلَّما ذَهَبوا إليه يقولُ لهم: إنِّي أُمِرتُ بالعَفوِ، ومَنَعَهم مِن أن يَأخُذُوا شيئًا مِن حَقِّهم مِنَ المشركِينَ.

حتَّىٰ إذا مَرَّ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، نَزَلَ قَولُ اللهَّ تعالىٰ: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللهَّ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)[الحج: ٣٩]، وما كانتْ تلكَ السَّنواتُ إلَّا لتعويدِ المسلمينَ عَلَىٰ أَلَّا يتعَوَّدُوا عَلَىٰ الانتصارِ لأنفُسِهم وألَّا ينتَصِرُوا للأحقادِ والضَّغائنِ الدُّنيويَّةِ، وإنَّما ينتَصِرُوا للحَقِّ؛ لأنَّ الدِّينَ رَحمةٌ للبشريَّةِ، وأنا أَذكرُ كَلِمَةً سَمِعتُها مِن فَضيلَةِ الإمامِ الأكبرِ، وجَّهَها لهُ والدُه، قالَ له بأنَّ العاصِيَ المذنبَ مريضٌ، والمريضُ يحتاجُ لعلاجٍ وليسَ تعنيفًا، وهذا الخُلُقُ هو خُلُقُ النُّبُوَّةِ. وكانَ النَّبيُّ يتعامَلُ معَ كُفَّارِ قريشٍ ومعَ اليهودِ ومعَ غيرِهم بالرَّحمةِ والشَّفَقَةِ ليأخُذَ بأيديهم إلىٰ دِينِ الحقِّ.

أَيُّها الفُضلاءُ

هذا الخُلُقُ، وهو ما عَصَمَ المسلمِينَ وحَماهم، بعدَ أن قاتَلَهُمُ المشركونَ العَربُ في الشَّامِ والعِراقِ ومِصرَ، واعتَدَوْا عَلَيهم، وعِندَما رَدَّ عَلَيهِمُ المسلمونَ هذا الاعتداءَ كانَ بدُونِ ضَغِينةٍ أو اعتداءٍ.

ونَبدأُ مِن مَكَّةَ؛ أوَّلُ مَا دَخَلَ [الرسولُ] مَكَّةَ كان بها مُشرِكُو العَربِ الذين فَعَلُوا الأَفاعيلَ، وكان أقلُّ شيءٍ ينبغِي أنْ يُوَجَّهَ لهم هو القتلَ، فإذا به صلَّى اللهَّ عليه وسلَّم يقولُ: اذهَبُوا فأنتُمُ الطُّلقاءُ، واقتدَىٰ به الصَّحابةُ مِن بعدِه، فعِندَما دَخَلُوا الشَّامَ والعِراقَ ومِصرَ، لم يحصلْ منهم إيذاءٌ لأحَدٍ، وكانوا أقليَّةً نِسبةً إلىٰ أصحابِ البِلادِ النَّصارَىٰ في الشَّامِ، ومعَ ذلكَ لم يَرَوْا عَدلًا مِثلَما رَأَوْه مِن أُمراءِ المسلمينَ، وهو ما جَعَلَهم لعهدٍ قريبٍ يعيشونَ في كثيرٍ مِنَ المدُنِ العربيَّةِ الَّتي أصبحَت مُسلِمَةً، وأصبحَ المسلمون فيها أكثريَّةً مِثل حِمصَ والقاهرةِ وبغدادَ، وغيرِها، يتعايشونَ مع غيرِهم، ولا يمنعُهم مِن إيذائِهم إلَّا دِينُ اللهَّ عزَّ وجَلَّ، ومِن أَجلِ ذلك، فأنا أَتَّفِقُ معَ الدكتورِ وائل عربيات (وزير الأوقاف الأردني) بأنَّ العُنوانَ يَحتاجُ لتَعديلٍ، فهذا الدِّينُ لا يَنْزِعُ فَتِيلَ الاعتداءِ، إلَّا إذا قُلنا: إنَّ الماءَ مِن شَأنِه أن يَحرِقَ، أو يُفضِي إلىٰ العَطَشِ.

فالأصلُ في دينِ اللهَّ هو إصلاحُ حالِ المجتمعِ، إذًا عِندما دَخَلَ المسلمونَ تلك البلادَ، رَفَعُوا الظُّلمَ، ونَشَرُوا العَدلَ، وساوَوْا بينَ أفرادِ المجتمعِ، حتَّىٰ قالَ العلماءُ: المسلِمُ كالذِّمِّيِّ لهم ذِمَّةٌ تُحترَمُ، والذِّمِّيُّ كالمسلِمِ في مالِه وعِرضِه،

فنُفُوسُهم اعتادَت علىٰ العَفوِ والرَّحمَةِ، فالقِتالُ لا يكونُ ضَغينةً بل شَفَقَةً ورَحمَةً، فبَعدَ هذا الزَّمنِ الطَّويلِ مِن قِتالِ المشركِينَ لهم قالَ لهم الرَّسولُ: أُمِرتُ بالعَفوِ.

وما أدَّىٰ بنا لذلكَ الأمرِ إلَّا ابتعادُنا عَنِ الفِقهِ الصَّحيحِ الذي اعتُصِرَ مِن كتابِ الفِقهِ والسُّنَّةِ، والمدارسُ الأربعةُ المعتبرةُ كانت هي العاصِمَ مِن هذا الزَّلَلِ بكُلِّ ما فيهِ مِن مسائلِ الدُّنيا، خاصَّةً المسائلَ بينَ المسلمينَ ومخالِفِيهم، فما كانَ مِن عُلماءِ المسلمينَ في مِصرَ والشَّامِ والعِراقِ وغيرِها إلَّا أن حَضُّوا النَّاسَ علَىٰ العَدلِ وعَدمِ الظُّلمِ، والبِرِّ بأخوانِهم مِن غيرِ المسلمينَ.

وما كانَ المسلمونَ لِيَمتَنِعُوا لولا أنَّ العُلماءَ وَقَفُوا لهم بالمرصادِ، وحَذَّرُوهم مِنَ الزَّلَلِ في الخطأِ، ومِن ثَمَّ فإنَّني أُشيرُ بعدَ هذا كُلِّه إلىٰ أنَّ الواجِبَ علَىٰ عُلماءِ الأُمَّةِ ومُفَكِّريها وقادَتِها مِن مُفَكِّرينَ وسِياسِيِّينَ، وأمراءَ وسَلاطينَ وحُكَّامٍ - هو تَحَمُّلُ المسئوليَّةِ الكُبرَىٰ في أن يَكُونُوا علَىٰ مسافَةٍ واحِدَةٍ بينَ جميعِ فِئاتِ الطَّيفِ، أفرادًا وجَماعاتٍ، فإنَّ البيئةَ الشَّاذَّةَ لا تُنبِتُ إلَّا شُذُوذًا وتَطَرُّفًا وإرهابًا.

فإذا أَرَدنا أن نَنزِعَ فَتيلَ الضَّغِينَةِ والشِّقاقِ، فالأَصلُ في ذلكَ أن نَتَأَسَّىٰ برَسُولِ اللهَّ صلىٰ الله عليه وسلم وأنْ نُساوِيَ بينَ المجتمعِ أفرادًا وجماعاتٍ، ونكونَ علَىٰ مسافةٍ واحِدةٍ، فمَن عصَىٰ نُرشِدُه ونترَفَّقُ به أكثرَ ممَّا نترَفَّقُ بغيرِه، وهذا واجِبٌ علَىٰ العُلَماءِ، فالعالِمُ أَبٌ للمُؤمِنِ والعاصِي، وكذلكَ القادَةُ والمفكِّرينَ.

أَسألُ اللهَّ أن يُجرِيَ الخيرَ علَىٰ يَدَيكُم.